

من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي»^(١).



(١) الدر المشور ٤ : ٤٨ - أخرج ابن أبي شيبة في كتاب العرش وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ يقول الله وعزتي . . .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دَعَاُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ وَالنُّوْرُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ خَلْقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ :

البرق ظاهرة كونية باهرة مبشرة أحياناً وقاهرة أخرى، قد تخافونها لأنها بنفسها ورعدها تهز الأعصاب وترعد الأسماع، فقد يتحول إلى صاعقة العذاب الهون، أم تنذر بسيل مدمر أم طوفان مزمجر، وأخرى مبشرة بهاطل المدرار المجري للأنهار، أم تجمع بين التبشير والإنذار حيث تبشر جماعة يحتاجون المطر، وينذر من يتضررون بالمطر، فأنتم تعيشونها خوفاً وطمعاً، كما ﴿يُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ محملة حمل الماء ليرسل عليكم مدراراً وغير مدرار.

والسحاب تأتي جمعاً كما هنا وفي الأعراف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا...﴾ (١). وواحدة سحابة، أم مفرداً اسم جنس كما في سائر القرآن (٢).

ثم ﴿يُرِيكُمْ﴾ يلمح بوجود البرق قبل إرائته في كمون الكائنات ومنها السحاب المسخرة في جو السماء، فتعم البرق المصطنع المخترع، فالبرق كامن في كل كائن، قد يريه الله إياناً دون وسيطنا كما في سائر البرق، وأخرى بوسيطنا كما في الكهارب المخترعة، فهنا إراءة بما نسعى، وهناك نراه ولا نسعى، وتجمعهما إراءة الله، كما وهو من خلق الله.

فليس البرق - أيأ كان - ليخلق باصطكاك وسواه، وإنما يظهر بعد خفائه بما يظهره إلهياً بأسبابه غير الشاعرة، كالسحاب وسواه، أم بأسباب شاعرة كالإنسان وسواه، فكله من إراءة الله كما الكل من خلق الله.

وكذلك السحاب ثقلاً وغير ثقال كلها مما أنشأها الله، بما يسحبه هو من أبخرة أرضية ولذلك يسمى السحاب، أم يسحبه إنسانه أم سواه فيصطنع سحاباً موضعية لحاجة شخصية أماهيه.

فمن السحاب ثقال هي ركام مؤلفة من خفافها المزجاة من الأبخرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ﴾ (٣).

ومنها خفاف لا تحمل ماء حاضراً إلا بعدما تؤلف فتصبح ركاماً، وعلى

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٢) ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] و﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] ﴿يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾ [النور: ٤٣] ﴿فَتُنزِّلُ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الرؤم: ٤٨] ﴿فَتُنزِّلُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩].

(٣) سورة النور، الآية: ٤٣.

آية حال فإنشاء السحاب الثقال هو من فعل الله، سواء دون وسيط عاقل محسوس كما في سائر السحاب، أم بوسيط الإنسان وسواه كما حصل أخيراً بتعملات علمية جاهزة.

ومن غريب التكوين اللامح إلى قريب المكون الحكيم، إراءة البرق باصطكاك السحاب خفافاً وثقلاً، فإنها أبخرة الماء، والماء يناحر النار فكيف تطلع منه نار، سبحان الواحد القهار، أفلا يدل ذلك الصنع العجيب على تقصد وإرادة حكيمة وراء الكائنات كلها؟! .

إنه يريكم البرق من أبخرة الماء، كما النار من الشجر الأخضر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾^(١).

وقد تلمح ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بعد ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ أن إنشاء السحاب الثقال من موارد إراءة البرق، ففي تأليف خفاف السحاب اصطكاك بينها تلاحقاً وتجمعاً ركاماً، كما في اصطكاكها ركاما برق وبرق، وأين برق من برق؟ فكلما اشتد الاصطكاك بشدة الوقع وثقل السحاب اشتد البرق ولحد الصاعقة.

قد يحصل البرق من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية الواحدة للاقتراب من كهربائية الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كل على الأخرى بنور زاهر قاهر وصوت قوي، فالنور هو البرق والصوت هو الرعد.

فقد تصدق الرواية القائلة: «البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب»^(٢) والقائلة: «أن ملكاً موكل بالسحاب يلم

(١) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٤٩ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخراطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: البرق مخاريق . .

القاصية ويلحم الدانية في يده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت»^(١).

﴿وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾^(١٣).

التسييح بالحمد هو سلب بالإيجاب، وهو الصحيح الفصيح في حمده سبحانه أن يسبح في حمده بصفاته العليا وأسماءه الحسنى، يسبح تنزيهاً عما لا يليق به من صفات المخلوقين، مهما تشابهت صفات بصفات في ألفاظها، فحمده بأنه عليم حي قدير، يفصحه تسييحه عن علم من سواه وحياته وقدرته: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسِيحَهُمْ...﴾.

فكما الملائكة يسبحونه بحمده من خيفته، كذلك الرعد وسائر الكائنات والحداث الكونية حيث ثبت له صفات الربوبية، تنزيهاً عن سائر الكائنات المربوبين، وهذا من تسييحها بحمد الله.

ولا نجد رعد القرآن إلا هنا في الرعد مسبحاً بحمده، وفي البقرة بصيبه: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ﴾^(٢) فالبرق هو النور البارق، والرعد هو الصوت الخارق، وهما من حصائل الاضطكاكات السحابية والتفريغات الكهربائية.

وفيما يروى عن الرسول ﷺ هو «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله...»^(٣) والتعبير

(١) المصدر أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت سأل رسول الله ﷺ عن منشأ السحاب فقال: إن ملكاً... .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٣) الدر المنثور ٤: ٥٠ - أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن =

عن القوات الكونية وحادثاتها بالملك، علّه للإشارة إلى أنها مقصودة مدبرة دون فوضى جزاف.

ولماذا يتقدم تسبيح الرعد بحمده على تسبيح الملائكة من خيفته وأين تسبيح من تسبيح؟ علّه للتأشير إلى أن الكون كله يسبح الرب بحمده، دون عقل وإدراك كما يزعمون، أم بعقل فائق كما الملائكة الكرام يعقلون، فالكل له يسبحون ويسجدون طوعاً أو كرهاً، والرعد من الطائعين مهما كان الكافر من المكروهين، فإنه يسجد بحمده بكونه، مهما تخلف عنه في كيانه، ولأن الرعد - كما البرق والصاعقة - هو من صكاك أجرام السحاب اللطيفة الطفيفة، إذا فأصواته الصريخة تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله المقدرّة وبعده عن شبه الخليقة المقدرّة، وصفات البرية المدبرة، حيث الرعد إنما تغلظ أصواته، وتعظم هزّاته، باصطكاك السحاب الخفيفة - على كونها ثقلاً بالمياه - معلقة بالهواء الرقيق، فأين الرعد المرعد من خفيف وخفيف، سبحان القدير اللطيف! فلو لا دعائم القدرة وسماكها، وعلائق الجبرية ومساكها لما حمل عشر معشارها ولا استقل ببعض أجزائها.

ثم نرى إنه على ثناقل أردافه وتعاضل التفافه ينفش انفشاش المتداعي، والغناء المتلاشى، إن في ذلك لعبرة لأولى النهى، حيث الرعد يسبح - هكذا - بحمده، ويحمل المرتعدين أن يسبحوه بحمده، حيث يضطرهم إلى تسبيحه عند سماعه، مهما تغافلوا عنه قبل سماعه! ثم الصاعقة وهي البرق الراعد الذي يصعق من يصيبه، هي اشتداد البرق والرعد لحد يتجاوز جو السماء إلى ساكن الأرض، كما الأحجار السماوية، فإنها شهب قوية ونيازك

= عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على نبيه إذ قال: **﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾** [القصص: ٢٨] قال: هاتوا قالوا أخبرنا - إلى أن قالوا -: أخبرنا ما هذا الرعد، قال: ملك..

وزمجرة العواصف عن غضبه، في هذه الهولة المزمجرة والتسيحة الشاملة، هؤلاء الحماقى الطغاة يرددون ويبرقون ويصعقون بنعرات وغوغائيات الجدل في الله وهو يريهم نفسه بقدرته البارعة وحكمته في خلقه: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾: المماكرة، فإنهم يماكرونه وهو ماكرهم وهو أشد مكرًا إن كانوا يشعرون.

فمهما أبرقوا وأرعدوا تضيع أصواتهم الجهنمية الهزيلة الرذيلة في خضم الرعد المسبح بحمده، والصاعقة الناطقة بوجود الله.

إن الصاعقة وهي من حصائل الصدمات السحابية واصطكاكاتها، هي أقوى نار تعرف، رغم أنها من ولائد الأبخرة السحابية المضادة للحرارة، ولربما تغوص في البحر وتحرق حيوانه في لجته، سبحان القدير المتعال.

تؤمض في الجو بروق، وتعقبها رعود، وتذهب بذلك من القوة الكهربائية ما قد تكفي لإنارة عشرات من المدن، أتراها تذهب ضياعاً وإن الله يسرف أو يبذر في هذه الومضات البارقة المرعدة؟! وهي قد تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع، وتحدث أضرار بليغة وكما نرى - مثلاً - في الولايات الأمريكية أراضى كثيرة كانت بالأمس مكسوة بالغابات والأحراش وآبار البترول وكثير أمثالها، وهي اليوم بلقع قفر على أثر الصواعق التي اجتاحت كل ما فيها.

وقد تصحبها أعاصير تحدث من الأضرار ما لا تقل عن أضرارها نفسها ولا سيما في البحار، وفي الجو حيث تتاب الطائرات فتصعقها.

وقد تعترض أمواج الكهرباء اللاسلكية فتعطلها أو توقفها عن أعمالها، وقد يظلم الجو بسببها فتضطر الآلات المولدة للنور الكهربائي إلى مضاعفة جهدها.

وقد قدّر العلماء الأضرار النسبية السنوية الناجمة عن عواصف الرعود والبروق فإذا هي لا تقل عن مأتي مليون دولار.

ولكنها بجنب أضرارها تحوي منافع كبيرة وكثيرة جداً، حيث تسبب هطل الأمطار الغزيرة، وتساعد على نترجة الهواء إشباعاً لها بالنتروجين فيصبح سماداً للتربة، وقد قدر السماد النتروجيني الناشئة عن عواصف البروق والرعود في بلاد الهند الصينية وحدها بزهاء مليون دولار، فكيف بالعالم كله.

فإذ قد يتضرر العالم بهذه العواصف فالنفع أكثر، بل وإصابة الكفار هو النفع الأكثر ثم سائر النفع، إذا ﴿وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ حمداً في نفعه، وتسيحاً عن ضره، أن يكون ظلماً أو إسرافاً، سبحان العزيز الجبار!

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ :

﴿لَهُ﴾ دون سواه ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ علّها حق الدعوة والدعوة الحقّة، فمن يدعوه كان حقاً في دعوته وهو المدعو، حقّ في إجابته، ثم لسواه باطل الدعوة والدعوة الباطلة، فإنك ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكَ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكَ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ (١) ﴿لَا جُرَءَ أَمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ (٢).

فالدعوة داعية ومدعوة لا حق فيها إلا له، وهي هي الباطلة لسواه، فليس لمن سوى الله دعوة حقّة هدياً إلى صراط مستقيم أم إجابة لمن دعاه لا في الدنيا ولا في الآخرة، والله لا سواه هدي إلى صراط مستقيم، واستجابة لمن دعاه على شروط الدعاء الحقّة المقررة المسرودة في الذكر الحكيم.

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٣.

وأما ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ف ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(١) فهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ على أية حال إلا كاستجابة باسط ﴿كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ فبلوغ الماء إلى فيه بحاجة إلى سبب مستقيم، وهو استقامة الدعاء والمدعو إليه، فمهما استقام الدعاء ببسط الكفين إلى الماء فليس بمجرد بسطه ليلبغ فاه، حيث ضل المدعو في وصوله إليه مهما توسط ببسط يديه إليه.

الداعي أيًا كان يطلب في دعاءه ماء الحياة وحاجياته المتطلّبة لبقائها ونضارتها وتكاملها، فهو مجد في طلبه قدر الحاجة، ورغم أن الطالب مجد، والمطلوب ضرورة للحياة، ولكنه ليس ليلبغ فاه إذ لم يطلبه من مبلغه ومبلّغه والطالب هو الطالب والماء هو الماء ولكننا النبعة غير النبعة، نبعة فوارة من رحمة الله الواسعة، وأخرى غائرة ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وقد ﴿ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٣).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾^(٤) :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَيثُوا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^(٥) ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملككة وهم لا يستكبرون ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾^(٧).

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٤) سورة النحل، الآيات: ٤٨-٥٠.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.